البَابُ الثَّانِي

الفصل الأول : معنى الحجاب ودرجاته .

الفصل الثانى : تاريخ الحجاب .

معنى الحجاب ودرجاته

معنى الحجاب :

أولًا : فى اللغة[1] :

الحَجْب والحِجاب : المنع من الوصول ، يقال : حَجَبَهُ أى مَنَعَه حَجْباً وحجاباً ، ومنه قيل للسِّتر الذى يحول بين شيئين : حجاب ، لأنه يمنع الرؤية بينهما ، وسُمِّى حجاب المرأة حجاباً لأنه يمنع المشاهدة ، وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من الدخول عليه إلا بإذنه خشية الأذى يصيبه ، وفى الحديث : (قال بنو قصى : فينا الحجابة) يعنون حجابة الكعبة ، وهى سدانتها ،وتولى حفظها ، أو هم الذين بأيديهم مفاتيحها ، وكل شىء منع شيئاً فقد حجبه كما تحجب الإخوة الأمَّ عن فريضتها ، فإنهم يحجبون الأم عن الثُّلُثِ إلى السُّدُس .

والحاجبان من الرأس لكونهما كالحاجبين للعينين فى الذَّبِّ عنهما ، واحتجب المِلِكُ عن الناس ، وتحجَّب: إذا اكتنَّ من وراء حجاب ، ومادة الحجاب وردت فى ثمانية مواضع من القرآن الكريم ، ومعناها فيها جميعاً يدور بين الستر والمنع :

ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾[2] ، أى : احتجبت ، وتوارت بالجبل أو الأفق ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ وبينهما حجاب ﴾[3] ،

---

(١) انظر « المصباح المنير » ص (١٣١) ، « لسان العرب » (٢٨٩/١) ، « تاج اللغة » (٤١/١) ، « إصلاح الوجوه والنظائر » ص (١١٧) ، « المفردات » للراغب الأصبهانى ص (١٥٥) .

(٢) (ص : ٣٢) .

(٣) (الأعراف :٤٦) .

أى : سور ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ﴾[1] أى من حيث لايراه ، وكذا فى قوله سبحانه :﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[2] أى مستورون ، فلا يَرَوْنَهُ .

ولم يذكر لفظ الحجاب فى موضوع بحثنا -وهو ستر النساء عن الرجال- إلا فى موضعين،أحدهما قوله عز وجل : ﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾[3] ،وثانيهما فى قوله جل وعلا : ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ ، أى ساتر يحول بينكم وبين رؤيتهن .

ومن استعمال الحجاب فى المعانى قولهم : العجز حجاب بين الإنسان ومراده ، والمعصية حجاب بين العبد وربه ، وجمع حجاب حُجُب ، مثل كتاب كتب .

ثانياً : فى الشـــرع :

وردت عدة تعريفات شرعية للحجاب ، يدور أغلبها حول جانب معين منه ، غير جامع لكل أركانه ومقوماته ، مثل قول بعضهم :
(هو ساتر يستر الجسم فلا يشف ، ولا يصف) .[4]

وقول البعض الآخر :
(هو حجب المرأة المسلمة من غير القواعد من النساء عن أنظار الرجال غير المحارم لها)[5] .

---

(١) (الشورى : ٥١) .
(٢) (المطففين : ١٥) .
(٣) (مريم : ١٧) .
(٤) (الأحزاب : ٥٣) .
(٥) « إعداد المرأة المسلمة » ص (١٠٦) .
(٦) « فصل الخطاب » للشيخ أبى بكر الجزائرى ص (٢٦) ، وقال حفظه الله : (بعض العوام يطلقون لفظ « الحجاب » على الحرز يكتب للمنع من العين أو الجان ، وهو ادّعاء باطل ، وعمل لا يجوز)اهـ .

والذى يساعد على وضع تعريف جامع للحجاب هو معرفة الغرض منه ، وكما أسلفنا القول فإن الحجاب أحد التدابير الوقائية التى شرعت من أجل منع وقوع الفتنة بين الرجال والنساء من جهة الشهوة .

إذن فالحجاب لفظ ينتظم جملة من الأحكام الشرعية الاجتماعية المتعلقة بوضع المرأة فى المجتمع الإسلامى من حيث علاقتها بمن لا يحل لها أن تظهر زينتها أمامهم .

وقد بيَّنا جملة صالحة من هذه الأحكام فى الفصل السابق بحيث نستطيع الآن أن ندرك موقع الحجاب بالنسبة لمقاصد الشريعة العليا خاصة ما يتعلق بحفظ العرض .

معنى السفور [1] :

يقال : سفرت الريحُ الغيمَ عن وجه السماء سَفْراً ، فانسفر ، فرَّقته فتفرق ، وسُمِّيَ السَّفَرُ سَفَراً لأنه يُسْفِرُ عن وجوه المسافرين وأخلاقهم ، فيظهر ما كان خافيًا منها ....

وإذا ألقت المرأة نقابها قيل : سفرت فهى سافرٌ بغير هاء ، قال أبو منصور : وسفرت المرأة وجهها إذا كشفت النقاب عن وجهها ، تَسْفِرُ سُفوراً فهى سافرة .

وبهذا يعرف أن السفور لغة هو كشف الوجه ، وقد خرج السفور اليوم عن معناه فى أصل اللغة ، وتحول إلى التبرج الفاحش والاختلاط المزرى بالأجانب .

من صور الحجاب :

للحجاب صور متعددة يمكن أن تحتجب بها المرأة عن الأجنبى ، فقد يكون

---

(١) « لسان العرب » (٦/٣٣ - ٣٧) باختصار .

الحائط مثلاً ، أو الستارة السميكة ، أو الباب حجاباً بينهما ، وقد تغطى المرأة وجهها :

- بالنقاب : وهو القناع الذى تضعه المرأة على مارن أنفها بحيث يُظْهِرُ عينيها ومحاجرهما[١] ، وهو ما يسمى باللفام ، فإن كان لا يظهر منه إلا عيناها فقط سمى برقعاً أو سمى بالوصوصة .

وسمى النقاب نقاباً لوجود نقبين فى مواجهة العينين لمعرفة الطريق ، قال الشاعر وهو يصور النقاب ، وقد صنع من وجه المرأة هلالاً به العينان :

سفــــــرن بـــــدوراً وانتقبــــن أهلــــة

- أو بالخمار ، ويسمى أيضاً : النَّصِيف ، وهو ثوب تتجلل به المرأة فوق ثيابها كُلِّها ، وسمى نصيفاً لأنه نَصَف بين الناس وبينها فحجز أبصارهم عنها ، وقيل : نصيف المرأة معجرها ، والمعجر : ثوب تلفه المرأة فوق رأسها ، ثم تتجلبب فوقه بجلبابها ، والاعتجار : أن يلف المعجر على الرأس ، ويرد طرفه على الوجه ، وقال ابن حجر فى تعريف الخمر : (ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها)[٢] اهـ .

درجـــات الحجـــاب

للحجاب الشرعى المأمور به ثلاث درجات بعضها فوق بعض فى الاحتجاب والاستتار ، دل عليها الكتابُ والسنة :[١٣] .

(١) محجر العين : هو ما دار بالعين من العظم الذى هو أسفل الجفن ، وهو مايظهر من نقاب المرأة ، فكل ما بدا من النقاب محجر . « لسان العرب » (٢٩٥/٢) .

(٢) وبهذا يعلم أن الحجاب والنقاب ليسا شيئين مختلفين ، بل الأول أعم من الثانى ، وبهذا أيضاً يتبين خطأ السؤال الشائع فى هذا الزمان متعلقاً بحكم كشف الوجه ، وهو : أيهما الفرض الواجب : الحجاب أم النقاب ، ويعنون بالحجاب كشف الوجه ، فالأصح أن يقال : الحجاب أم السفور ، أو : النقاب أم السفور ؟ والله أعلم .

الأولى : حجاب الأشخاص فى البيوت بالجدر والخدر ، وأمثالها ، بحيث لا يرى الرجال شيئاً من أشخاصهن ولا لباسهن ولا زينتهن الظاهرة ولا الباطنة ، ولا شيئاً من جسدهن من الوجه والكفين وسائر البدن ، وقد أمر الله عز وجل بهذه الدرجة[1] من الحجاب فقال : ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب ﴾[2] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[3] .

ويرشح هذه الدرجةَ أحاديثُ تحبب إلى المرأة القرار فى البيت ، وعدمَ الخروج حتى إلى صلاة الجماعة مع رسول الله ﷺ ، فإن قرارها فى بيتها أرجى لها فى الأجر عند الله تعالى .

الثانيـة : خروجهن من البيوت مستورات ، ومن أدلتها قوله تعالى : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾[4] الآية .

الثالثة : خروجهن مستورات الأبدان من الرأس إلى القدم ، مع كشف الوجه واليدين عند أمن الفتنة عند بعض الأئمة[5] ، واتفق جمهور علماء المذاهب فى هذا الزمان على وجوب تغطية الوجه والكفين من المرأة سدًّا لذرائع الفساد ، وعوارض الفتن ، فلم يبق يشرع إلا الدرجتان الأولى والثانية .

---

(١) انظر : « جواهر القرآن » لمفتى عموم باكستان العلامة محمد شفيع ، و« أحكام الحجاب فى القرآن » للشيخ المفسر الأستاذ أمين أحسن الإصلاحى .

(٢) (الأحزاب : ٥٣) .

(٣) (الأحزاب : ٣٣) .

(٤) (الأحزاب : ٥٩) .

(٥) ويعد بعض العلماء الدرجة الثالثة من الحجاب هى « الحجاب الداخلى » الذى يحدد ما تظهره المرأة داخل البيت لمن يدخل عليها – بعد الاستئناس والاستئذان بشروطه وآدابه – من المحارم وغيرهم الذين ورد استثناؤهم فى سورة النور ، وانظر : « أحكام الحجاب فى القرآن » ص (٩ – ٢٠) .

تاريخ الحجاب

تعتبر قضية « الحجاب » جزءًا من مقومات المرأة ، مرتبطاً بأوائل وجودها ، إذ كانت بدايته مع الأبوين فى الجنة حيث أسكنهما الله تعالى ، يأكلان منها حيث شاءا إلا شجرة واحدة ، فوسوس لهما الشيطان حتى أكلا منها ، قال تعالى : ﴿ فَدَلَّاهُما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾[1] الآية ، ثم أُهْبِطا إلى الأرض ، وبدآ حياة جديدة ، فأنزل الله عليهما اللباس مرة أخرى ، كما قال تعالى :
﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير ﴾[2] الآية .

وقد حذر الله عز وجل بنى آدم من فتنة الشيطان فى موضوع هذا اللباس خصوصاً حتى لا يعيد معهم الكرَّة ، فقال جل وعلا :
﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ﴾[3] الآية .

فماذا عن التطورات التاريخية لحجاب المرأة عند الأمم المختلفة ، ونخص منها أهل الكتاب وعرب الجاهلية ؟

الحجاب عند أهل الكتاب

من الأوهام الشائعة خاصة عند الغربيين أن حجاب النساء نظام ابتدعه الإسلام ، وأنه لم يكن له وجود قبل الإسلام لا فى جزيرة العرب ، ولا فى

---

(١) (الأعراف : ٢٢) .
(٢) (الأعراف : ٢٦) .
(٣) (الأعراف : ٢٧) .

غيرها ، وكادت المرأة المحجبة عندهم أن تكون مرادفة للمرأة المسلمة ، أو المرأة التركية[1] التى كانت تمثل الإسلام فى نظرهم من خلال « تركيا » دار الخلافة ، وهذا الوهم مما يبين مدى جهلهم لا بحقائق الإسلام نفسه فحسب ، بل أيضاً بحقائق التاريخ ، ونصوص كتبهم الدينية التى يتداولونها،ويتعصبون لها ، ولا يكلفون أنفسهم عناء قراءتها ومراجعتها ، ونخص بالذكر التوراة ، والإنجيل .

فمن يقرأ كتبهم يعلم بغير عناء كبير فى البحث أن حجاب المرأة كان معروفاً بين العبرانيين ، من عهد إبراهيم عليه السلام ، وظل معروفاً بينهم فى أيام أنبيائهم جميعاً ، إلى مابعد ظهور النصرانية .[2]

وقد تكررت الإشارة إلى البرقع فى غير كتاب من كتب العهدين القديم والجديد[3] : ففى الأصحاح الرابع والعشرين من « سفر التكوين » عن « رفقة » : (أنها رفعت عينيها ، فرأت إسحاق ، فنزلت عن الجمل ، وقالت للعبد : « من هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائى ؟ » ، فقال العبد : « هو سيدى » ، فأخذت البرقع ، وتغطت) .

---

(١) اشتهر الحجاب فى تركيا لا لأنه « تقليد » تركى كما يزعم المغالطون أو الواهمون ، وإنما كمظهر من مظاهر تمسك التركيات بالإسلام ، فالحجاب فى تركيا كان إسلاميًّا فحسب ، والترك لم يعرفوه إلا من خلال إسلامهم ، لأنهم أخذوه عن الشعوب التى تعلموا منها الإسلام ، الذى يفرض على المرأة الحجاب ، ومن ثم كان الحجاب - بصورة من الصور - أصلًا مرعياً فى العالم الإسلامى كله - وليس فى تركيا وحدها - خلال قرون متطاولة من الزمان - انظر : « واقعنا المعاصر » للأستاذ « محمد قطب » ص (١٥٧) .
وليس العجب من ترويج الكتاب الغربيين لهذه الفِرية أمثال « أرنولد توينبى » صاحب كتاب « مدخل تاريخى للدين » ، وذلك لأن هؤلاء الغربيين جميعاً كانت لهم مهمة معروفة عندما كتبوا هذا فى حق الأتراك ، ولكن العجب من أناس يدعون العلم والمعرفة وهم مقلدة لهؤلاء الغربيين حتى فى أكاذيبهم الصارخة مثل دعواهم أن الحجاب بدعة تركية (!) .

(٢) وهنا نسأل : هل يحتمل عند « توينبى » وأذنابه أن يكون الأتراك هم الذين كتبوا لليهود والنصارى كتابهم المقدس عندهم ؟

(٣) انظر : « المرأة فى االقرآن » لعباس محمود العقاد ، الفصل السادس ص (٨٧) وما بعدها .

وفى الأصحاح الثامن والثلاثين من « سفر التكوين » أيضاً : (أن ثامار مضت،وقعدت فى بيت أبيها ، ولما طال الزمن ، خلعت عنها ثياب ترمُّلِها ، وتغطت ببرقع ، وتلففت) .

وفى النشيد الخامس من أناشيد سليمان تقول المرأة : (أخبرنى يامن تحبه نفسى أين ترعى عند الظهيرة ؟ ولماذا أكون كمقنعة عند قطعان أصحابك ؟) .

وفى الأصحاح الثالث من « سِفْر أشْعِيا » : (إن الله سيعاقب بنات صِهْيَوْنَ على تبرجهن والمباهات برنين خلاخيلهن بأن ينزع عنهن زينةَ الخلاخيل والضفائر والأهِلَّة والحِلَق والأساور والبراقع والعصائب)[1] .

ويقول « بُولَس » فى رسالته « كورنثوس » الأولى : (إن النقاب شرف للمرأة) ، وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلتقى بالغرباء ، وتخلعه حين تنزوى فى الدار بلباس الحداد .

وكانت الكنيسة فى القرون الوسطى تخصص جانباً منها للنساء حتى لا يختلطن بالرجال .

قال الكونت « هنرى دى كاسترى » :
(ربما كان الإنجيل أكثر تدقيقاً فى التشديد - يعنى فى الحجاب - ولكنه لا يعمل به إلا قوم خصَّهم الله بمواهب الكمال) اهـ من كتاب « الإسلام خواطر وسوانح »[2]) اهـ .

(وفى يوم من الأيام حكمت الكنيسة الأرثوذكسية بحرمان المرأة حقها فى المجتمع (!) ، فحظرت عليها حضور المآدب والحفلات ، وألزمتها الحجاب صامتة صابرة ، لا شأن لها إلا الطاعة للزوج ، والقيام بالغزل والنسيج ، وطهى

(١) ولعل من مظاهر هذه العقوبة منعهن من المساجد لما أحدثن الزينة كما فى حديث عائشة رضى الله عنها المتقدم ص (٢٢).

(٢) « المرأة العصرية وصفاتها المنافية للإسلام » للشيخ محمد الزمزمى الغمارى ص (٨) .

الطعام ، وإذا خرجت من بيتها خرجت مستورة الجسم من قمة رأسها إلى أخمص قدمها[1]) .

ولعله لهذا بقيت آثار البرقع والحجاب عند أهل الكتاب حتى يومنا هذا ، وذلك واضح فى زى راهبات النصارى ، ودخول النصرانيات الكنيسة ، وقد غطين رءوسهن بساتر ، بل هن حتى اليوم فى حفلات أعراسهن يغطين وجوههن بنقاب شفاف فلعله من بقايا دينهم .

الحجـــاب عنـــد عـــرب الجاهليـــة

نبين فى هذا الفصل - إن شاء الله - أن العرب عرفوا فى جاهليتهم حجاب القرار فى البيت ، ، ونقاب الوجه ، ولعل هذا من بقايا الحنيفية السمحة التى تلقاها عرب الجاهلية عن ملة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، كما تلقوا منها الختان والعقيقة وغيرهما ، كما عرفوا سفور الوجه الذى كان أغلب حالات فتيات العرب ، وعرفوا هيئات مختلفة من التبرج الذى وصفه الله عز وجل بأنه « تبرج الجاهلية الأولى » ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[2] ؛ فقد كانت المرأة تلبس درعاً من اللؤلؤ ، فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال[3] .

وفى أقصى الطرف الآخر كان هناك طائفة من العرب عرفوا التكشف الفاضح حيث كانوا يطوفون بالبيت عراة ، ويُسَوِّغون ذلك بقولهم : « لا نطوف فى ثيابٍ عصينا الله فيها »[4] ! ، بل افتروا على الله الكذب حيث قالوا فى تسويغ تلك الفاحشة : ﴿ وجدنا عليها ءَاباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا

(١) « حقوق المرأة فى الإسلام » - من رسائل الجزائرى ص (٧) .

(٢) (الأحزاب : ٣٣) .

(٣) « تفسير غرائب القرآن » للنيسابورى (١٠/٢٢) حاشية الطبرى .

(٤) انظر « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير (٣٩٨/٣) ط . دار الشعب .

يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾[1] .

وفى « صحيح مسلم »[2] عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عريانة ، فتقول : من يعيرنى تطوافاً ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية ﴿ يابنى ءادم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[3] الآية .

وكان من لباس نساء الجاهلية المهلهل والهفاف ، وهما دقيقا الخيط ، رقيقا النسيج ، أما ما كثُف حَوْكُه ، وضوعفت حواشيه فيدعى بالصفيق والشبيع والحصيف ... ومن لباسها الدثار ، وهو جلباب شامل ، والنطاق وهو ثوب تشده المرأة إلى وسطها ، وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل[4] .

وقد سجلت لنا آثارهم الأدبية وأشعارهم على وجه الخصوص الحالة الاجتماعية للمرأة الجاهلية ، وهذا ما نفصله فيما يلى إن شاء الله :

أولاً : حجاب الجُدُر

عرف العرب حجاب الجدر ، وهو قرار المرأة فى بيتها ، فمن ذلك قول بعضهم :

ماكان أغنانى عن حُبِّ مَن مِن دونه الأستار والحجبُ

ومنه أيضاً قول امرىء القيس :

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بها غَيْرَ مُعْجَلِ

(١) (الأعراف : ٢٨) .

(٢) « صحيح مسلم بشرح النووى » (١٦٢/١٨) .

(٣) (الأعراف : ٣١) ، وهذه الضلالة الجاهلية المشار إليها أبطلها رسول الله ﷺ سنة تسع حين أذن مؤذنه فى الناس يوم النحر بمنى : (ألَّا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان) رواه البخارى وغيره .

(٤) « المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها » (١١٠/١ – ١١١) بتصرف .

يقول : وَرُبَّ امرأةٍ كالبيض فى سلامتها أو فى الصون والستر أو فى صفاء اللون ونقائه ملازمةٍ خِدْرَها غيرِ خَرَّاجةٍ وَلا وَلَّاجَةٍ انتفعت باللهو فيها على تمكث وتلبث لم أعجل عنها ، ولم أشغل عنها بغيرها .[1]

وامتدح العرب المرأة التى تقر فى بيتها ، ولا تخرج منه ، فقال بعضهم فى ذلك :

(من كان حرباً للنسا ءِفإننى سلم لهنه
فإذا عثرن دعوننى وإذا عثرت دعوتهنه
وإذا برزن لمحفل فقصارهن ملاحهنه

فقوله : قصارهن يعنى المقصورات منهن فى بيوتهن اللاتى لا يخرجن منها إلا نادراً ، كما أوضح ذلك كثير عزة فى قوله :

وأنتِ التى حببتِ كل قصيرة إلىَّ وماتدرى بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحَجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

والحجال جمع حجلة ، وهى البيت الذى يزين للعروس ، فمعنى قصيرات الحجال : المقصورات فى حجالهن ، والبحاتر : جمع بُحْتُر وهو القصير المجتمع الخَلْق .

وذكر بعضهم أن رجلاً سمع آخر قال : لقد أجاد الأعشى فى قوله :

غــراء فــرعــاء مصقــول عــوارضهــا
تمشي الهوينا كما يمشي الْوَحَى الوَحّلُ[2]
كــأن مشيتهــا مــن بيــت جــارتهــا
مــر السحــابــة لا ريــث ولا عجــلُ
ليســت كمــن يكــره الجيران طلعتهــا
ولا تــراهــا لسر الجــار تختتــل

فقال له : قاتلك الله ، تستحسن غير الحسن ، هذه الموصوفة خَرَّاجة

(١) «شرح المعلقات السبع» للزوزني ص (١٥).
(٢) الوَحَى: الإسراعُ، والوَحَلُ: بفتح الحاء وسكونها، الطين الرقيق ترتطم فيه الدواب.

وَلَّاجة ، والخراجة الولاجة لا خير فيها ، ولا ملاحة لها ، فهلا قال كما قال أبو قيس بن الأسلت :

وتكسل عن جاراتها فيزرنها وتعتل من إتيانهن فَتَعْذَرُ)[1]

ومن امتداح العرب المرأة القارَّة فى بيتها قول امرىء القيس :

ويضحى فتيتُ المسكِ فوق فراشها
نؤومَ الضُّحى لم تنتطِقْ عن تَفَضُّلِ[2]

فهو يذكر ترف هذه المرأة ، وأن لها من يكفيها ، فقال « نؤوم الضحى » أى أنها تنام إلى وقت الضحى ، وأن فتيت المسك - وهو ما تفتت من المسك عن جلدها فوق الفراش - يبقى إلى الضحى ، وهى لا تنتطق أى لا تلبس النطاق فى وسطها لِتَخْدُمَ ، ولكنها فى بيتها متفضلة .

بل كان من الجاهليات من توصف بأنها غاية فى التستر والانجماع عن الأجانب ، ولزوم الأخلاق الفاضلة ، ألم تسمع قول الشَّنْفَرى يمتدح زوجته أميمة :

لقد أعجبتنى لا سَقُوطاً قِناعُها
إذا ما مشت ، ولا بذات تَلَفُّتِ[3]
تبيتُ بُعَيْدَ النوم تُهدى غَبُوقَها
لجارتها إذا الهديـــــةُ قَلَّتِ[4]
تُحِلُّ بمنجاةٍ من اللوْم بيتَها
إذا ما بُيوتٌ بِالمَذَمَّـةِ حُلَّتِ[5]

---

(١) « أضواء البيان » (٧/٦٨٧ - ٦٨٨) .

(٢) انظر « شرح المعلقات » للزوزنى ص (٢٣) .

(٣) يقول : إنها عفيفة ستيرة رزينة فى مِشيتها ، لا تتعمد إسقاط نقابها أمام الأجانب لاحتشامها ، وحيائها ، ولا تكثر من التلفت كما تفعل ذوات الريبة من النساء .

(٤) وهى كريمة سخية تجود بالهدية على جاراتها فى وقت يعز فيه الإهداء .

(٥) وهى حريصة على سمعتها ، وسمعة بيتها ، فهى تصونه عن كل ما يُخِلُّ ، فالذمُّ لا يلحقها .

كأنَّ لها فى الأرض نِسْياً تَقُصُّهُ
على أُمِّها ، وإن تكَلِّمْكَ تَبْلِتِ[1]
أُمَيْمَةُ لا يُخزى نَثَاها حليلَها
إذا ذُكِرَ النسوانُ عَفَّتْ وَجَلَّتِ[2]
إذا هُوَ أمسى آبَ قُرَّةَ عينِه
مآبَ السعيدِ ، لم يَسَلْ : أين ظَلَّتِ[3]

ثانيــاً : حجــاب البــدن والوجــه

أما حجاب الوجه فقد كان معروفاً عندهم أيضاً :

فمما يذكر فى كتب التاريخ والأدب (أن النابغة أحد فحول الشعر الجاهلى[4] قد مرت به امرأة النعمان المسماة بالمتجردة فى مجلس ، فسقط نَصِيفها - أى برقعها - الذى كانت قد تقنعت به ، فسترت وجهها بذراعيها ، وانحنت على الأرض ترفع النصيف بيدها الأخرى ، فطلب النعمان من النابغة أن يصف هذه الحادثة فى قصيدة ، فعمل القصيدة التى مطلعها :

أمن آل أمية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

(١) وهى من شدة حيائها إذا مشت تُطرِقُ بصرها فى الأرض ، ولا ترفعه ، حتى يظن من رآها أنها تبحث عن شىء ضاع منها ، فهى تتبع أثره ، وإن كَلَّمت غريباً ، فإنها تكلمه بما تحتاج ، ولا تطيل حديثها معه .

(٢) لذا فإذا ذكرت أفعالها وأخبارها ، لم تَسُؤْ حليلها لحسن مذهبها وعفتها .

(٣) وإذا عاد زوجها آخر النهار وجد ما يَسُرُّه منها ، ولم يحتج إلى سؤالها : أين كانت ؟ لأنها لا تبرح بيتها .

وانظر « المفضليات » بشرح التبريزى (٥١٥/١ - ٥١٨) .

(٤) النابغة : زياد بن معاوية بن ضباب الذبيانى ، شاعر جاهلى من الحجاز ، كان عند النعمان بن المنذر - من ملوك الحيرة - وقد شبَّبَ بامرأته بهذا البيت المشهور به من قصيدة له ، فأراد النعمان قتله ، فهرب إلى الغسانيين بالشام ، ثم رجع إلى النعمان « الأعلام » للزركلى ص (٥٤) .

إلى أن قال :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ ، وَاتَّقَتْنا بِالْيَــدِ)[1]

ومما يدل على أنهم عرفوا البرقع قول أحدهم :

إن لم أقاتل فألبسونى برقعاً وفتخات فى اليدين أربعا

وفى قصيدته التى مطلعها :

أفاطِمُ قَبل بَيْنِكِ وَدِّعينى ومنعَك ما سألتُك أن تبينى

قال محصن بن ثعلبة الشاعر الجاهلى الملقب بـ « المثقب العبدى » :

وثقبن الوصاوص بالعيون

والوصاوص : البراقع .

وكانت بعض نساء العرب لا يسفرن عن وجوههن إلا لخطب عظيم يلم بهن ، ولهذا قال رؤبة الحميرى عاشق « ليلى الأخيلية » من قصيدة يمدحها بها ، ويثنى عليها بالتبرقع غالباً ، مع جمالها ، ويشير فيها إلى أن إسفارها عن وجهها تارة رابه إذ لعله لخطب ألَمَّ بها :

وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقعت وقد رابنى منها الغداةَ سفورُها[2]

وقال ربيع بن زياد العبسى يرثى مالك بن زهير :

مـن كــان مسروراً بمقتل مالك
فليــأت نسوتنــا بوجـــه نهارِ
تجد الـــنساء حواسراً يندبنـــه
يلطمـــن أوجههـــن بالأسحـــار
قد كن يخبأن الوجوه تستراً
فاليـــوم حين برزن لِلنُّظَّـــارِ[3]

---

(1) نقلاً من « الإسلام وتيارات الجاهلية » لآدم عبد الله الألورى ص (١٥١ - ١٥٢) .
(2) « زاد المسلم بحاشية فتح المنعم » (١/٣٨٣) .
(3) « المرأة العربية » (١/١٠٧) .

وكانت المرأة فى حالة الحرب ، إذا اشتملت عليها الوقائع ، أو دارت على فريقها الدوائر ، وارتقبت من وراء ذلك ذل السباء وعار الإسار ، تظهر سافرة حاسرة حتى تلتبس بالإماء ، وفى هذا الموطن يقول مُهَلْهِلُ بن ربيعة :

قَرِّبا مَرْبَطَ المُشَهَّرِ منى   سوف تبدو لنا ذواتُ الحجال(١)

وقال سبرة بن عمر الفقعسى يُعَيِّرُ أعداءه بكشف وجوه نسائهم فى الحرب :

ونسوتكم فى الرَّوْعِ بادٍ وجوهُها
يُخَلْنَ إماءً ، والإمــاء حرائــر

وهو صريح فى أن ستر الوجوه وكشفها كان هو الفارق بين الحرائر والإماء .

وقال عمرو بن معد يكرب يحكى احتدام حرب من حروبه التى كانت قبل الإسلام :

وبدت لميــس كأنهــا   بــدر السمــاء إذا تبــدى

أى إنها التجأت لشدة الحرب ، وشُغلها بالجليل من الأمر إلى كشف وجهها ، فظهرت كالبدر ، ومعناه أنها كانت تحتجب فى عامة أحوالها .

(وهذه حرب الفجار تنشب بين قريش وهوازن بسبب تعرض شباب من كنانة لامرأة من غمار الناس ، راودوها على كشف وجهها ، فنادت : « ياآل عامر » ، فلبتها سيوف بنى عامر)(٢) .

وكان بين نساء الجاهلية من تستر وجهها لِكَلَفٍ أصابه ، وفى نحو ذلك ما نقل أبو زيد فى نوادره عن أعرابى قيل له :
« ما تقول فى نساء بنى فلان ؟ » فقال : « بَرْقِعْ وانظر » ، يريد بذلك أن عيونهن خير ما فيهن .

---

(١) المشهر : فرسُ مُهَلْهِل ، والحجال - جمع حجلة - ستور العروس .
(٢) « المرأة العربية » (٢٨/١) .

وشبيه ذلك ما حَدَّث الراغب (أن أسديًّا قبيح الوجه خطب امرأة قبيحة ، فقيل لها : إنه قبيح وقد تعمَّم لك ، فقالت : إن كان تَعَمَّمَ لنا ، فإنا قد تبرقعنا له)[1] ، وهذا أعرابى تضايقه البراقع لأنها تحول بينه وبين الحسان ، وتخدعه فى غير الحسان ، فيقول :

جزى الله البراقع من ثياب ... عن الفتيان شرًّا ما بقينا
يوارين الحِسانَ فلا نراها ... ويسترن القِباح فتزدهينا[2]

ثالثاً : سفور الوجه

وبين أيدينا أمثلة سائرة مما أرسله العرب تنبئنا أن كشف القناع كان أغلب حالات فتيات العرب[3] وأمثلها بهن ، فمن ذلك قولهم : « تَرْكَ الخِداعَ مَن كَشَفَ القِناع » ، يريدون أن الفتاة لا تستر وجهها إلا لشر تؤثر أن تستره ، وقولهم فيمن لا يستر عيبه :

« كذاتِ الشيب ليس لها خمار » ، فهم لا يرون الخِمار لزاماً إلا لذات الشيب ، فإن خليقاً بها أن تواريه .[4] .

(ولم يكن لحجاب الانتقاب بين نساء العرب نظام شامل ، ولا هيئة واحدة ، ففى القبيلة الواحدة ترى « الْبَرْزَةَ » وهى التى تجلس إلى الرجال ، وتجاذبهم الحديث سافرة غير محجوبة ، و« المحتشمة » كما قدمنا ، وهى التى ترخى قناعها إذا خرجت من بيتها ، فلا تطرحه حتى تعود .

---

(١) « السابق » (١/١٠٤ - ١٠٥) .

(٢) « فتح المنعم حاشية زاد المسلم » (١/٣٨٣) .

(٣) ومن ثَمَّ قال العلامة محمد بن جزى الكلبى رحمه الله : (كان نساء العرب يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء) اهـ من « التسهيل » (٣/١٤٤) ، وقال العلامة أبو حيان رحمه الله : (كان دأب الجاهلية أن تخرج الحرة والأمة مكشوفتى الوجه فى درع وخمار) ، وقال أيضاً : (الذى كان يبدو منهن فى الجاهلية هو الوجه) اهـ من « البحر المحيط» (٧/٢٥٠) .

(٤) « المرأة العربية » (١/١٠٥) .

قال الفراء : « كانوا فى الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها ، وتكشف ماقُدّامَها فأُمِرن بالاستتار »[1] اهـ .

ومنهن « سَقُوطُ القناع » وهى التى لا تكاد تنتقب ثقة بنفسها ، وإدلالاً بحسنها ، أو سيراً على سجيتها ، وفى مثلها يقول المسيَّب بن علس :

إذا تستبيك بأصلتىٍّ ناعم   قامت لتفتنه بغيرِ قناع

تستبيك : تغلبك على نفسك حتى تكون سبياً لها ، والأصلتى : الخد الحسن .

وقال المرقِّش الأصغر :

أرتك بذات الضال منها معاصماً   وخدًّا أسيلاً كالوذيلة ناعما

ذات الضال : موضع ، والوذيلة : المرأة ، ومعنى ذلك أنها لم تتحرج بما يخفى معاصمها ، أو يحجب وجهها .

وإلى هذه يشير عمر بن أبى ربيعة فى قوله :

فلما توافقنا وسلمت أقبلت   وجوهٌ زهاها الحسن أن تتقنّعا

زهاها الحسن : استخفها ، يقول : إن هذه الوجوه استخفها الحُسْن عن أن تتقنَّعَ ، وقال الأصمعى : وقد تُلقِى المرأةُ خِمارَها لحسنها وهى على عفة ، وأنشد فى ذلك قول أبى النجم فى إحدى أراجيزه :

مِنْ كُلِّ غراء سَقُوطِ البرقع   بَلْهاءَ لم تُحْفَظْ ولم تُضَيَّع

غراء : من الغُرَّةَ وهى بياض الوجه ، والبلهاء الغافلة عن الشر ، الحسنة الظن بالناس)[2] .

(وكان من شيمة نساء العرب تطويلُ الثياب ، وجَرُّ الذيول كما اشتهر فى أشعار أهل الجاهلية منهم كامرىء القيس الذى قال فى معلقته :

(١) نقله عنه الحافظ فى « الفتح » (٨/ ٤٩٠).

(٢) « المرأة العربية » (١٠٣/١ – ١٠٤) بتصرف .

خرجتُ بها تمشى تَجُرُّ وراءنا   على أثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

والمرط الكساء من صوف أو خز أو غيرهما ، والمَرَحل - بالحاء المهملة - المنقوش بنقوش تشبه رحال الإبل ، وكذلك اشتهر فى أشعار العرب بعد الإسلام ، قال عمر بن أبى ربيعة المخزومى الشاعر المفلق المتهالك فى مدح النساء :

كُتِبَ القتلُ والقِتالُ علينا   وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيُولِ) [1] .

---

(١) « زاد المسلم بحاشية فتح المنعم » (٣٨٣/١) .